

خالد حربي

الأسر العلمية ظاهرة فريدة في الحضارة الإسلامية

(الإسكندرية: المكتب الجامعي الحديث، ٢٠١٠). ١٠٦ ص.

علي عفيفي علي غازي(*)

صحافي وأكاديمي مصري.

العقلية، وأبرز هذه القدرات التي تورث هي الذكاء.

- ١ -

فالأسرة هي مدرسة أفرادها التي تقوم بتنشئتهم اجتماعياً، كما أنها تعمل على نقل الاهتمامات والميول من جيل إلى جيل، وتعودهم على التقاليد، وخاصة الآداب العامة والسلوك والدين والعلوم، ومن ثم فإن وظيفتها هي إعداد الفرد ليصبح نواة في المجتمع وأساساً من أسس تكوينه، الأمر الذي يساعد على تقويمه وتقويته، وهذه العوامل الوراثية ليست بالعامل الهين، وليست بالعامل الوحيد، ولكنها تؤثر تأثيراً إيجابياً هاماً في توارث ميول واهتمامات الآباء لأبنائهم، الأمر الذي يميز أسراً بعينها، ينبغ أفرادها في مجالات علمية واحدة، هذا ما يقدمه د. خالد حربي من خلال تساؤله الذي يطرحه: هل شهد تاريخ علوم الحضارة الإسلامية وجود أسر علمية تربطها

الأسرة هي اللبنة الأولى في بناء النسيج الاجتماعي، والأسرة قديمة قدم الخليقة، ولذا فقد استوعبت عبر تاريخها الطويل ذلك الركام الهائل من الثقافة الإنسانية، الذي يعكس كل التغيرات الاجتماعية والثقافية التي شهدتها المجتمعات، ولهذا كونت النقطة الأولى التي يبدأ منها التطور، فهي الوسط الطبيعي الاجتماعي الذي يترعرع فيه الفرد. والأسرة هي المنشأ الذي تتفتح عليه عيون الفرد؛ ومن خلالها يتهيأ للتعامل مع مجتمعه الأكبر أو وطنه المحيط به، فإذا ما نبت في أسرة علمية فإن ميوله - في الأغلب الأعم - ستكون ميولاً علمية، ويأتي ذلك من عامل الوراثة الذي يعنى انتقال صفات الأفراد من جيل إلى آخر؛ فالطفل يرث من أبويه الصفات الجسمانية، كما يرث أيضاً القدرات

نبغت في مجالات علمية واحدة. ويحاول المؤلف أن يؤكد أن النماذج التي قدمها للأسر العلمية التي شهدها التاريخ العلمي الإسلامي ليست كل الأسر، بل هي عبارة عن نماذج تحاول أن تجيب عن التساؤل الذي طرحته الدراسة (ص ٦).

- ٣ -

وقد قسم المؤلف الكتاب إلى مقدمة وبابين، اشتمل كل باب منهما على فصلين، ثم اختتم بفصل أخير عن نتائج الدراسة.

في الباب الأول عرّف بأسر حركة الترجمة والنقل، وهي بنو حنين بن إسحاق، وبنو قرّة، وبنو بختيشوع، وفي الباب الثاني عرض لأسر العلوم البحتة، وهي بنو موسى بن شاكر، وبنو زُهر.

وخلص الباحث في النهاية إلى أن النهضة العلمية التي عاشها العالم الإسلامي كان من أبرز سماتها وجود أسر علمية نشطة تعمل وفق منهج محدد من أجل ازدهار العلوم، ولعبت دوراً بارزاً في حركة تقدم العلوم. ومن تحليله لهذه الأسر العلمية وتتبعها اتضح مدى التواصل العلمي بين أفراد الأسر والجماعات العلمية المختلفة رغبة في العلم الذي خلع على أهله في ذلك العصر إجلالاً وتقديراً من العامة والخاصة. وقد سادت بين هذه الأسر نظم من العلاقات قائمة على التعاون والمحبة تربط بعضهم ببعض من أجل تحقيق أهداف الأسرة ككل.

كما اتضح من خلال البحث أن النشاط العلمي لمعظم الأسر العلمية التي تناولها المؤلف لم يقتصر على أفراد الأسرة الدموية؛ بل إن الأسرة الواحدة ضمت في

علاقات دم أو قرابة؟ سؤال هام يحاول أن يجيب عنه في كتابه الأسر العلمية ظاهرة فريدة في الحضارة الإسلامية، ليؤكد أن عصر ازدهار الحضارة العربية الإسلامية، الذي عاشه العالم الإسلامي قد شهد نبوغ أسر أو عائلات اشتغلت بالعلم، وكانت تربطها علاقات دم أو قرابة عملت وفق أطر معيّنة ومنهج محدد من أجل ازدهار وتقدم العلوم التي احتوتها حركة النهضة العلمية.

- ٢ -

يؤكد المؤلف من خلال مؤلفه هذا على أن تاريخ علوم الحضارة الإسلامية قد شهد العديد من الأسر العلمية التي يربط أفرادها قبل الاشتغال بالعلم علاقات دم أو قرابة، وربما كانت هذه العلاقات أحد الأسباب الرئيسية التي ساعدت على نبوغ تلك الأسر في المجال العلمي، وتعد مثل هذه الأسر ظاهرة فريدة تنفرد بها الحضارة العربية الإسلامية عن سائر الحضارات. هذه الأسر قامت بينها علاقات تعاون وتنافس وصراع؛ ومن أمثلة هذه الأسر أسرة بختيشوع، التي نبغ أفرادها في علم الطب إلى درجة أنهم خدموا الخلفاء ابتداءً من الجد الأكبر، ومروراً ببعض الأبناء والأحفاد، فضلاً عن إسهاماتها في حركة النقل والترجمة، وأسرة حنين بن أسحق التي اشتهرت في مجال الترجمة، وأسرة ثابت بن قرّة، وأسرة موسى بن شاكر، التي نبغت في الفلك والهندسة والميكانيكا والمساحة والفيزياء، وأسرة بنى زُهر في المجال الطبي، الأمر الذي يؤكد أن تاريخ العالم العربي الإسلامي قد شهد أسراً علمية

بنيته العلمية أفراداً لا تربطها بالأسرة صلات دم أو قرابة.

وفي الفصل الأول قدم المؤلف نموذجاً لأسرة نبغت في مجال حركة الترجمة والنقل في العلوم الطبية، وهي أسرة حنين بن اسحق، وذلك بترجمة مؤسسها وخصائص عمله العلمي من إرساء قواعد علمية ثابتة، واتساع مجال نشاط الأسرة إلى تحقيق النصوص الإغريقية، وترجمة الكتب من علوم الحضارات الأخرى إلى اللغة العربية، ثم عرّف بإسحق بن حنين الذي تفرّد عن أبيه وأستاذه بميزة هامة في تقاليد الأسرة، وهي تنوّع التخصصات في ممارسة العلم، فإذا كانت مدرسة حنين بن اسحق تخصصت في ترجمة ونقل الكتب الطبية؛ فإن اسحق بن حنين ترجم كتباً في الفلسفة والمنطق لأشهر الفلاسفة اليونانيين كأرسطو، ومن الأسرة حبيش بن الأعسم ابن أخت مؤسسها، وكان أقرب تلاميذه إليه وأكثرهم قرباً وملازمةً له، الأمر الذي يجعله أحد دعائم الأسرة الرئيسية التي ارتكزت عليها مدرسة حنين بن اسحق في الترجمة.

وفي الفصل الثاني تناول د. حربي أسرتين برزتا كذلك في مجال الترجمة هما: بنو قرة، وبنو بختيشوع. ضمّت الأولى ثابت بن قرة الذي انصب على ترجمة ونقل المؤلفات الطبية، فضلاً عن بعض الترجمات الفلسفية، وابنه سنان، وحفيده ثابت بن سنان، وضمّت هذه الأسرة أفراداً لا ترتبط بصلات دم أو قرابة ببنيته العلمية كعيسى بن أسيد؛ الذي تتلمذ على يد مؤسس الأسرة، وأظهر نبوغاً، واستحق تقديم ثابت بن قرة له، للدرجة

التي سمح له بمناظرته، وهو تقليد علمي لا يوجد إلا في المجتمعات العلمية المتقدمة الراقية في العلم. وأسرة بختيشوع التي قَدِمَتْ إلى بغداد ونبغت في الترجمات الطبية دون غيرها، واختصت كذلك بالتعليم الطبي. وأول من وفد منها إلى بغداد جورجيس بن بختيشوع الذي استقدمه الخليفة العباسي المنصور، وصار طبيبه الخاص إلى أن توفي في خلافته، ثم استقدم المهدي من جنديسابور ولده بختيشوع ليحلّ محلّ والده جورجيس، فظل في خدمته وخدمة الهادي والرشيد طبيباً حاذقاً، وبعد وفاته استقدم الرشيد ابنه جبرائيل، وصار طبيبه الخاص وجعله رئيساً للأطباء، وظل كذلك زمن الأمين والمأمون حتى توفي في خلافة الأخير.

وفي الفصل الثالث توقف الباحث أمام نقد وتقييم أسر الترجمة والنقل، وإلى أي مدى ينطبق عليها مفهوم الأسرة العلمية، ودورها في النهوض بالحضارة الإسلامية، ليؤكد أن المجتمع العلمي الإسلامي قد شهد إبان عصر الترجمة وجود أسر علمية، شهدت تعاوناً، وتنافساً، انعكس أثره في نهضة الحضارة الإسلامية.

وفي الفصل الرابع عرض لأسرة نبغت في العلوم البحتة كالفلك والهندسة والميكانيكا والمساحة والفيزياء، وهي أسرة بني موسى بن شاكر التي ضمّت الأبناء الثلاثة «محمد وأحمد والحسن» لموسى بن شاكر، الذي لم يقدر له أن يعمل في تلك الجماعة العلمية لأنه توفي وهم أطفال صغار، فكون هؤلاء الإخوة الثلاثة جماعة علمية متأزرة قدمت أعمالاً جليّة، وازدادت

— ٤ —

وفي نهاية الكتاب خلص د. حربي إلى نتيجة نهائية هامة تدعو الباحثين إلى الاهتمام بدراسة الأسر العلمية في تاريخ الحضارة الإسلامية، بالبحث والتنقيب عن مؤلفاتهم التي لا تزال تهجع بسلام على أرفف المكتبات مخطوطة، وذلك بتحقيقها ونشرها لتفيد منها الإنسانية في مختلف فروع العلوم، وتؤرخ لدور العرب والمسلمين في تاريخ العلم العالمي لتتعرف على الأوجه المشرقة في التاريخ العربي والإسلامي.

ومن الجدير بالذكر أن النتائج التي توصل إليها الباحث تعد إضافة إلى حقل تاريخ العلوم عند العرب، وفلسفة العلوم والحضارة الإسلامية، كما أنه اعتمد في إعداد الكتاب على مصادر أصلية، واعتمد أيضاً على مراجع علمية رصينة، كما التزم بالموضوعية والحيدة، الأمر الذي يجعل كتابه إضافة لحقل العلوم الإنسانية □

حصيلتهم العلمية، وتطورت أساليبهم التطبيقية إلى الدرجة التي مكّنتهم من القيام بأول وأهم وأخطر عمل، وهو قياس محيط الأرض، الأمر الذي مكّنها من أن تلعب دوراً في تاريخ العلم وتشكّل مكاناً رئيسياً في تاريخ التكنولوجيا بصفة خاصة.

أما الفصل الخامس فكان لأسرة بني زُهر التي ظهرت في الأندلس خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر الهجريين، ونبتت في مجال العلوم الطبية، وشكّلت مكاناً رئيسياً في الطب العربي والعالمي، فرأينا رأس هذه العائلة أبا مروان يتقن صناعة الطب حتى صار خبيراً بأعمالها، ومشهوراً بالحقق فيها إلى الدرجة التي معها انتشرت أخباره في مختلف أقطار الأندلس، ثم حرص على نقل خبرته إلى ابنه أبي العلاء الذي أظهر نبوغاً مبكراً، ثم برز الحفيد أبو بكر محمد بن أبي مروان لتتأكد به وتستمر التقاليد العلمية في أسرة بني زُهر لتتواصل إنجازات الأسرة العلمية.